Türkiye Diyanet Vakfı
Kütüphanesi
İslâm Araştırmaları Merkezi

عبد اللطيف شرارة

# ابن حزم

## رائد الفكر العالمي

منشورات
المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت

# تمهيد

عندما يقف مجتمعٌ بأكمله ، بعامّته وخاصّته ، برجاله ونسائه ، بحكّامه ومحكوميه ، ضدّ فردٍ من الأفراد ، لا لسببٍ ظاهرٍ من الأسباب سوى أنّ هذا الفرد « يفكّر » خلاف ما يفكر جمهور ذلك المجتمع ، نجـــد أنفسنا إزاء حالةٍ تكاد تكون فريدة في حِقَب التاريخ البشري ، ونرى أننا أمام ظاهرةٍ نادرةٍ من ظواهر الاجتماع الإنساني يعسر أن نعثر لهـا على مثيل ، لشدّة تناقضها مع ما تعوّدنا أن نشهد ونسمع .

ذلك بأنّ صراع الفرد مع مجتمعه ، أو نضال الإنسان مع بيئته ، كان يرتدي على الدوام ، طابع الانتصار أو الانكسار لأحدهما ، فإمّا أن يوفّق الفرد إلى فرض أفكاره ، إلى التغلّب على من يحيط به من الناس ، وعندئذ يحتلّ مكان الصدارة في حياتهم ، ويتولّى زعامتهم ، ويمسك بدفة التوجيه لأعمالهم ، وإما أن ترهقه الأحداث ، وتلتوي عليه الأمور ، فيذعن ويستسلم ، أو « يتكيّف » آخر الأمر ، ويتحوّل إلى واحدٍ في الآحاد ، إلى « رقم » كغيره من أبناء المجتمع المجهولين ، يعيش كما يعيشون ، ويفكر في النهاية كما يفكرون ، ويموت أخيراً كما يموتون ...

هذا هو المألوف من حيوات الأفراد في كل صراعٍ قام بين مجتمع وفرد ، بين بيئة بجملتها وفئةٍ محدودةٍ من ابنائها . أمّا أن تستمر المعركة دون أن تؤدّي إلى غلبة أحدهما ، ويستمرّ الفرد في استقلاله الفكريّ والروحيّ أيةً كانت العراقيل التي يواجهها ، ويصرّ على أن يعيش خلاف ما يعيش الناس حوله ، ويضرب صفحاً عن كل ما يكتنف أيامه على أديم هذا الكوكب من آلامٍ ومتاعب وكروب ، حتى يموت أخيراً على نحو يختلف عن موت الآخرين ، فذاك ما لم يشهده تاريخ البشريّة إلا في سِيَرِ أفرادٍ يُعَدّون على الأصابع ، ربّما كان سقراط أشهرهم ، وربّما كان يليه في هذا « التفرّد » من غير أن ينال شهرته ، أبو محمّد عليّ بن أحمد بن سعيد بن حزم .

والغريب في أمر هؤلاء ، أن مشكلة كل واحدٍ منهم ، على ضآلة عددهم ، تظلّ « فريدة » من نوعها ، وفي بابها ، وإن اشتركوا في بعض الصفات ، والتقوا عند نقطة واحدة هي « التفرّد » ولا تنعقد المقارنة بينهم إلا بعد لحاظ ما يفصل الواحد منهم عن الآخر ، في الزمن والبيئة والمزاج والاتجاه .

لقد صادمت البيئة الأغريقية سقراط مثلاً في القرن الخامس قبل الميلاد بسبب من آرائه واعتقاداته وحملته أخيراً على تناول السم ، وكان من المجتمع الأندلسي الذي صدمه ابن حزم في القرن الحادي عشر بعد الميلاد ، أن اضطهد ابن حزم ، وأحرق كتبه ومؤلّفاته ، وشرّد تلامذته وأتباعه ، وأرغمه على اعتزال الناس والموت في العراء دون أن يعرف بوفاته أحد . الأوّل وقف موقف الدفاع من المجتمع ، والثاني كان إلى الهجوم أقرب . الأول أصبح معروفاً لكثرة ما خاض الناس في حديثه وتناقلوه من خبره ، وأثبتوا من حقائق في شأنه ، حتى ليصحّ القول إنه انتصر ، بمعنى من المعاني بعد موته ، ووفّق إلى فرض نفسه على التاريخ ، ونزلت اللعنة على أعدائه واحدقت بذكرهم ، كلّما ذكروا ، فلا تبارحهم بعدُ أبدا ... أمّا الثاني



فلا تزال قضيّته غامضة ، وقد تسرّب إليها غموض الانتصار الذي يحققه بعض الأفذاذ في صراعهم مع أنفسهم ، ويخفِقون من ثمّة في حَمْلِ الناس على انتهاج نهجهم ، وسلوك طريقهم ، فيبدو لنا أنهم اندحروا لعدم تجاوب المجتمع معهم .

هنا ينبغي أن لا يغرب عن بالنا أن الأفراد الذين يفضي بهم النضال مع مجتمعاتهم إلى تسنّم السلطة ، أو تولّي القيادة ، أو التربّع على سدة الزعامة ليسوا ، في التحليل الأخير ، وإن عظمت مواهبهم ، وتعدّدت كفاءاتهم ، سوى « تعبيرات » عما تتطلّع إليه أجيالهم و «ملتقيات» أطوارٍ وأوضاعٍ ومزايا وشمائل يجتمع الناس على حبّها في بيئاتهم ، وبهذا لا يكون خلافهم معها جذرياً عميقاً ، ولا يستقيم لنا اعتبار انتصارهم من صنع أيديهم وحدها ، وإنما يكون ، إذ يكون ، ضرباً من التكيّف المزدوج الذي يحققه المجتمع والفرد كلٌّ من جانبه في نفسه ، مع الأفكار الجديدة التي يدعو إليها الفرد ، هذا الفرد الذي نطلق عليه عادة وصف « البطل » أو « المصلح » أو « الفيلسوف » وكان الأقدمون يطلقون عليه وصف « النبيّ » أو « الوليّ » ( القديس ) أو « الحكيم » .

لم يكن ابن حزم ، شأنه شأن سقراط ، يبغي زعامةً ولا قيادةً ولا رئاسة ، وإنما توجّه بعد أن اكتهل واكتمل نضجه ، نحو مطلبين جليلين أساسيين ، وإليهما صرف كل همه واهتمامه ، أولهما تصحيح التفكير ، وثانيهما تقويم الأخلاق . وكانت وسائله إلى بلوغها ثلاثاً : ١ – تأليف الكتب ، فوضع نحواً من أربعمائة مجلد ، و «كمل من مصنّفاته في فنون العلم وقرُ بعير». ٢ – التبشير ، ولذا طاف معظم أنحاء الأندلس ومدنها يدعو إلى ما يراه صواباً ، ويشدّد النكير على ما كان يراه خطأً وضلالاً . ٣ – المناظرة مع الفقهاء والعلماء والباحثين من كل جنسٍ ولونٍ وملّةٍ وبلد ، فكان « يحمل

علمه ، ويجادل من خالفه فيه ، على استرسالٍ في طباعه ، ومذْلٍ بأسراره ، واستنادٍ الى الذي أخذه الله على العلماء من عبـــاده ، ليُبيّننُنّه للناس ولا يكتمونه ... »

غير أن من يعتمد مثل هذه الوسائل لبلوغ مثل هاتيك الغايات لا بدّ أن يكون قد بذل جهوداً جبّارةً للاحاطة بمعارف عصره ، والاطلاع على وجوه الآراء ومناحي النظر في شتّى القضايا والشؤون ولا ندحة له عن أن يكون قد تحصّن بالتأمل العميق والاختبار الدقيق ، وتترّس بالصبر والثقة ، وتدرّع بالقوى الروحية والمعنوية لمجابهة الصعاب ، وتخطّي العقبات ، والردّ على الخصام ، فهو إذ يعمل على تصحيح الفكر لدى غيره ، إنمـــا يعني بذلـك — ضمناً — أنّه واثقٌ الى أبعد حدٍّ من صحة رأيـــه ، واعتلال الأفكار الشائعة في بيئته وعصره ، وعندما يحاول تقويم الأخلاق يشير إلى أنه أمِن — وهو العارفُ الفطِن — من كل عِوَجٍ يمكن أن يؤخـــذ على سلوكه ، واطمأنّ الى نزاهة قصده وسلامة طويّته .

أمّا مقدرته العلميه وسعة اطلاعه واستقلاله الفكريّ فتلك أمورٌ انعقد على إثباتها إجمـــاع المؤرخين الذين تعرّضوا لذكره في المغرب والمشرق على السواء فقال صاعد : « كان ابن حزمٍ أجمعَ أهلِ الأندلس قاطبـــة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة مع توسّعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسّير والأخبار .. » وقال ابن حيان : « ... ويا لبدائع هـــذا الحَبْرِ عليّ بن حزمٍ وغرره ! ما أوضحها على كثرة الدافنين لها والطامسين لمحاسنها ! وعلى ذلك ، فليس ببدع فيما أضيع منه ، فأزهد الناس في عالم أهلُه ، وقبله أردى العلماء تبريزُهم على من يقصُرُ عنهم ، والحسدُ داءٌ لا دواء له » .

فإذا رجعت الآن تتحرّى ما كان من أمر أخلاقه ، وقعت على شهاداتٍ متناقضة ، وأقوالٍ متعارضة ، وتقديرات متغايرة ، ولكن تناقضهـا ينهض



بالبرهان على أنّ ابن حزمٍ كان يتمتع بشخصية قويّة ، ويفيد أنّ أخلاقه لم ترق معاصريه ، ولا استهوت أحداً ممن احتكّ بهم احتكاكـــاً مباشراً ولا سيّما الفقهاء والأدباء والكتاب والباحثـين . ونحن نعلم أن الحرّ ، القويّ في طباعه ، المستقلّ في تفكيره ، المستغني بنفسه وكفاءاتـه لا يوفق في الأعمّ الأغلب ، إلى اكتساب الرضا والعطف ، ويحجم الناس عن ايلائه المودّة والحبّ ، هذا إذا لم يكن موضع سخطهم ، ومثار إرجافهم وتخرّصهم . و « الناس » كما قال أحد العارفين ، « شجرة ذات جنى ، وتوشك أن تكون ذات شوك ، فإن ناكدتهم ناكدوك ، وإن هربت منهم طلبوك ، وإن تركتهم لم يتركوك » .

وتلك هي بالضبط قصة ابن حزم مع أبناء الأندلس في ذلـــك الزمن : راح يناكدهم ويسفّهُ أحلامهم ، ويغضّ من شأن علمائهم وفقهائهم ، حتى انتشرت الأشواك في سُبُله ، وضاقت عليه البلاد بمـا رُحبت ، ولم يبق له سوى التجوال ، فالاعتزال ، فالموت ... منبوذاً !

نحن إذن من ابن حزمٍ أمـــام رجلٍ عاش للفكر ، واضطهد بسبب من الفكر ، ومات حين مات في سبيل الفكر . وهو في ذلك كله « ظاهرة » من ظواهر الحضارة التي أنشأها العرب في الأندلس ، وعبـــارة بليغة من عبارات الثقافة التي أقاموها هناك ، وانتشرت من بعدُ في أوربا ، وكانت أساساً بنى عليه الأوربيون المحدثون نهضتهم ، واستمدّوا منها حوافز رقيّهم وعناصر تقدّمهم ؛ وإنّ ابن حزم كمفكر سبق ابا بكر محمد بن يحيى المعروف بابن باجه ، كما سبق ابن طفيل وابن رشد ، وكان له الأثر الفعّال في تفكير ابن تومرت ، وبالتالي في إيقاظ الحياة الفكرية التي ازدهرت بعده في أجيال المغرب ، والأندلس ، وأوربـا .

وإن رجلاً يبلغ من التأثير الفكريّ هذا المدى ، لقمينٌ بأن يُدْرَسَ ،

وأن يعاد النظر في ’كلّ‘ ما يتصل بحياتـه ، وعصره ، ومجتمعه ، وآثاره ، ففي هذه مجتمعة ومنفردة ، أكثر من عبرة ، وأكثر من أمثولة ، يفيد منها كل فردٍ كما يفيد منها كلّ مجتمع .

وهذه إحدى المحـــاولات في عرض الظروف التي أحـاطت بشخصيته وإنتاجه ، بنسبة ما هي عرضٌ لأهمّ القضايا والمشاكل التي خاضها وعملت على تكوينه ، وعمِلَ من جانبه على حلّها .

إنها محاولة ... ولعلّها تفتح أفقـاً ، وتنير في فهم المـــاضي وعلاقته بالحاضر ، سبيلاً .

* * *



# عصـــرُه

كان قدوم العرب إلى إسبانيا أو شبه جزيرة إيبيريا ( إسبانيا والبرتغال) على الأصح ، واحداً من تلك الأحداث التاريخية الخطيرة في حياة هـــذه الأرض ، منذ عرفت الأرض التاريخ الى يومها هذا . فهناك ... في تلـــك المناطق التي كانت تعتبر « طرف الدنيا » في أذهان الشعوب ، والقائمة على ساحل بحر الظلمات ( المحيط الاطلسي ) ، أنشأ العرب أسنى وأغنى وأبهى وأرقى حضارةٍ في القرون الوسطى ، وتوشك أن تفوق بمـــا بقي لدينا من آثارها ، حضارة العصور الحديثة ، في بعض الجوانب والمظاهر .

وكانت الاندلس أهم منطقة في شبه الجزيرة الايبيرية ، عمرهـــا العرب وأقاموا في مدنها وقراها وكُوَرِها . وفيها أسسوا ما اسسوا من معاهـــد العلم ، وبدائع العمران ، وذخائر الفنون ، وحدائق الأدب ، ودور الصناعة ، وأسواق التجارة ، وثمار الزراعة ، وهي التي استهوتهم بجمالاتهـا ، وفتنتهم بآلائها ، وأيقظتهم الى حدٍّ على الطبيعة وما تعجّ بـــه من محاسن ، ثم على المجتمع البشري وما يتعرّض له من أطوار وانقلابات وتغيرات ، فلم تكفّ